حديث السخرية فى القرآن

السخرية تفيد معنى الاستهزاء . تقول العرب : هزئ به واستهزأ به ، مثل قولهم : سخر منه . وقيل : الهزء مزحٌ فى خفة . والاستهزاء : الاستخفاف ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره .

وكثيراً ما يصحب ذلك السخرية منه ، وهى الضحك الناشئ عن الاستخفاف والاحتقار .

وتقول العرب : سخر منه ، وسخر به : أى هزئ به واحتقره . وسخر الله منهم : أهانهم . واتخذه سخرياً : أى مثار استهزاء . واستسخره : بالغ فى السخرية به . وقد يطلق الضحك بمعنى السخرية ، ومن ذلك قولهم : ضحك به ، أوسخر ، ويراد منه التعجب . وقد يطلق أيضاً على هذا المعنى كلمةُ : التفكه .

وللسخرية فى القرآن الكريم حديث يساق :

ولما كانت السخرية – فى الغالب – لوناً من التطاول على الإنسان ، والاستخفاف بالغير ، لم يرتض الإسلام – وكتابه القرآن المجيد – أن تكون صفةً من صفات المؤمنين ، اللهم إلا فى حالة الانتصاف ورد الكيد إلى أهله

لأن القرآن يقول : « والَّذِينَ إذَا أصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » (الشورى ٣٩) .

وجعل القرآن رذيلة السخرية المتطاولة الجاهلة صفة غالبة على الكافرين المجرمين ، ولذلك قال عنهم فى سورة الصافات : « وإذَا رَأَوْا آيةً يَسْتَسْخِرُونَ » (الآية ١٤) . أى يدعو بعضهم بعضاً إلى أن يسخر ، كأنهم يتنافسون فى السخرية ، أو يتواصون بها ، للتسابق فى الشر .

ويحدثنا القرآن بأن شر أنواع السخرية هو سخرية الكافرين بالرسل ، وذلك لأن الرسل هم النماذج العليا للبشر ، وهم الدعاة الهداة بأمر الله وتوجيهه ، وطاعة الرسول من طاعة الله ، ومحبته من محبة الله ، فإذا تطاول عليهم متطاول ، أو استهزأ بهم مستهزئ ، فكأنه يتطاول بذلك على مقام ربه سبحانه وتعالى .

ونحن نجد القرآن فى سورة « هود » عليه السلام ، يقص لنا قصة نوح عليه السلام مع قومه فيما يتعلق بالسفينة والطوفان ، فيقول فيما يقول :

« ويَصْنَعُ الفُلْكَ وكلَّما مَرَّ عليْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا منْهُ ، قالَ إنْ تَسْخَرُوا منَّا فإنَّا نَسْخرُ منكم كَما تَسْخَرُونَ . فَسوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يأتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ويَحِلُّ عليْهِ عذابٌ مُقِيمٌ » (الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .

أى يأخذ نوح — عليه السلام — فى صنع السفينة التى ستحمل المؤمنين لإنجائهم من كارثة الطوفان ، ويصنع نوح ذلك استجابةً لأمر ربه القوى القادر ، وانتظاراً لوعده الكريم المأمون بالنجاة والفوز ؛ ويمر عليه قومه ، جماعة بعد جماعة ، وفوجاً إثر فوج ، وكلما مرت عليه جماعة سخرت من عمله ، واستهزأت به ، وتندرت عليه .

لقد حسبوه فى زعمهم مجنوناً ، أو مصاباً بهوس ، وعلى الرغم من أنهم يرون بأعينهم ما يصنعه ، يسألونه فى استهزاء واستخفاف : ماذا تصنع يا نوح ؟

فيجيبهم : أصنع بيتاً على الماء ! . . .

وهو صادق كل الصدق فى إجابته . لأنه يصنع سفينة تسير فوق الماء ، ولكن لعل السفن لم تكن مألوفة لديهم ، أو لم يكن عندهم دقة النظر التى تمكنهم من فهم جوابه .

وحينما يوجهون سخريتهم إلى نوح يرد عليهم قائلا فى انتصاف : إن تسخروا منا - لجهلكم فائدة ما أصنع ، فإنا - نحن المؤمنين سنجاريكم من جنس عملكم ، فسخر منكم اليوم لجهلكم ، وسخر منكم غداً ، لما يحل عليكم من انتقام الله عزوجل .

وسوف تعلمون غداً من يصيبه عذاب يذله فى الدنيا ، ثم يصيبه فى الآخرة عذاب دائم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ويرصد صاحب « ظلال القرآن » هذا المشهد من مشاهد قصة نوح ، ويلحظ مافى كلمة « يصنع الفلك » من حيوية فيقول : « التعبير بالمضارع فعل الحاضر - هو الذى يعطى المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التعبير . يصنع الفلك ، وترى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون ، يسخرون من الرجل الذى كان يقول لهم : إنه رسول ، ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً . إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر ، شأنهم دائماً فى إدراك الظواهر ، والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير .

فأما نوح فهو واثق عارف ، وهو يخبرهم أنه يبادلهم سخرية بسخرية : « قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » نسخر منكم لأنكم لاتدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله ، وما ينتظركم من مصير : « فسوف تعلمون من

يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

أنحن أم أنتم ، يوم يكشف المستور عن المحذور » ! !

* * *

وإذا كانت سخرية هؤلاء الطغاة المجرمين بنبى الله نوح مثالاً لفسق الإنسان وفجوره حين يسخر بداعية ربه ورسول خالقه ، وقد وقع هذا الإثم الفاجر فى الزمن القديم ، فإن الإنسانية - ممثلة فى بعض أبنائها الطغاة - لم تكف عن هذا الإثم الآثم ، بل ظل رسل الله عليهم الصلاة والسلام يلقون مثل هذه الجريمة - السخرية - ممن كتب الله عليهم الشقوة ، وأعدهم سوء العذاب

وهذا هو القرآن يوثق ذلك النبأ حين يقول فى سورة الأنعام :

« وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (الآية ١٠) .

فأهل الكفر والضلال قد استهزءوا برسل كرام عظام من رسل الله قبلك يا محمد عليك الصلاة والسلام وربك بالمرصاد ، فألحق بأولئك الساخرين ما يستحقونه من عقاب ، وتاريخ هؤلاء يحدثك عن ألوان البلاء والهلاك التى نزلت بهم ، وهذا جزاء عادل مقابل استهزائهم بالرسل عليهم الصلاة والسلام .

وكأن هذه الآية الكريمة نوع من التسلية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وتبشير له بأن الله سينصره على أولئك الساخرين ، وينتقم له منهم بعذابه وعقوبته ، وإذا كان المشركون قد طغوا وبغوا على رسول الله محمد ، بألوان من التكذيب والاستهزاء والإيذاء ، ويحسبون أنهم بمنجاة من السوء والعذاب ، فقد كان الذين سبقوهم من طغاة الحياة أشد منهم قوة ومالا ، وكانوا يحسبون كما يحسب المشركون أنهم آمنون لا تنالهم عاقبة طغيانهم ، ولكن الانتقام أحاط

بهم كما سجل القرآن وصادق التاريخ .

وهؤلاء المشركون الذين يسخرون منك - يا محمد - سيلاقون ما لاق أسلافهم . .

لا تحزن ... إنهم على الطريق ، وبئس الطريق !

* * *

ويعود القرآن المجيد ليعرض علينا مشهداً من مشاهد سخرية المجرمين بحيرة الناس أجمعين .

يتحدث القرآن إلى الرسول فى سورة « الصافات » عن المشركين المكرين للبعث والحساب ، فيقول له فيما يقول : « بلْ عجِبْت ويَسْخَرُونَ ، وإذَا ذُكِّروا لا يَذْكُرونَ ، وإذا رَأوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ » (١٢ ١٤) .

إنك قد عجبت يا محمد من حماقة هؤلاء وسفههم ، حين كذّبوا البعث ، وأنكروا القيامة ، وأنت موقن بصدقه وحقه . وهم مع ذلك يسخرون من هذا الحق المبين ، وكلما شاهدوا دلالة على صدقك أعرضوا عنها واستهزءوا بها .

وحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعبر صاحب ظلال القرآن – أن يعجب من أمرهم ، فإن المؤمن الذى يرى الله فى قلبه كما يراه محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب لاشك ويدهش : كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ، وكيف يمكن أن تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب منهم هذا العجب ، إذ هم يسخرون من القضية الواضحة التى يعرضها عليهم ، سواء فى وحدانية الله ، أو فى شأن البعث والنشور ، وإذا هم مطموسون ، لا تتفتح قلوبهم للتذكير ، وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجيب ممن يريهم إياها ،

واستدعاء أسباب السخرية ، وطلبها طلباً كما يوحى لفظ « يستسخرون » !

* * *

وبعد سخرية المجرمين بالمرسلين تأتى جريمة السخرية من الكافرين بالمؤمنين . . .

يقول الله جل علاه فى سورة البقرة :

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحياةُ الدُّنْيا ، ويَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، والَّذِين اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ، واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ » (الآية ٢١٢) .

إن الذين لا يؤمنون بالحق الثابت ، والحقوق المشروعة لله وللناس ، بل يفضلون زينة الدنيا على ما عند الله سبحانه من النعيم المقيم الدائم ، جعلوا هذه الزينة أكبرهمهم وغاية قصدهم ، وهم يهزءون بالمؤمنين الصادقين ، ويسخرون من فقرائهم ، لأنهم محرومون من زينة الدنيا بسبب فقرهم ، ويسخرون من أغنياء المؤمنين ، لأنهم - فى زعم الكافرين - لا يتمتعون بأموالهم وغناهم فى مباذل الحياة وشهواتها ووجوه إسرافهم ، بل يستعدون للقاء ربهم ، ويحلون أنفسهم بمكارم الأخلاق ومحامد الفعال .

وأغنياء المؤمنين يرون لذتهم فى خدمة غيرهم ، والقيام بحقوق الأفراد والجماعات ، وكلما أنفق المؤمنون فى سبيل الخير مغنماً ، عده أولئك الكافرون مغرماً ، وزادوا فى سخريتهم ، ولبئس ما يفعلون .

وفى هذه الآية يخبر الله تعالى - كما يذكر ابن كثير - عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمرهم الله بها ليرضى عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجهه ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم . فكانوا فوق أولئك فى

محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين ، وخُلِّد أولئك فى الدركات فى أسفل سافلين .

* * *

ويقدم القرآن الحكيم لوناً آخر من سخرية الكافرين بالمؤمنين :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة التوبة عن المنافقين :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ ، والَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُم ، ولَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الآية ٧٩) .

تتحدث الآية الكريمة عن أولئك المنافقين الآثمين ، الذين يعيبون المؤمنين المتطوعين بالخير والإنفاق ويطعنون فيهم ، لا لعيب عندهم ، ولا لسيئة منهم ، بل لأنهم يتطوعون ، ويتبرعون بأموالهم وأشيائهم لمن يستحقون المعاونة ؛ وكذلك يعيب أولئك المنافقون اللؤماء ، على الفقراء المؤمنين الذين يتصدقون بالقليل الذى يدخل فى وسعهم وطاقتهم .

والله المنتقم العادل يسخر من أولئك الساخرين ، ويعذبهم بما أجرموا ، وسمى عذاب السخرية هنا سخرية على طريق « المشاكلة » والجزاء من جنس العمل ، فجازاهم بمثل ذنبهم ، فجعلهم بقدرته سخريةً للمؤمنين وللناس أجمعين ، حيث فضح نفاقهم ، وكشف صغارهم ، ثم توعدهم بعذاب أليم من بعد ذلك .

ولقد جاء فى صحيحى الإمامين البخارى ومسلم عن أبى مسعود البدرى رضى الله تعالى عنه قال :

لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (أى يحمل بعضنا لبعض بالأجرة) فجاء أبو عقيل الحباب بنصف صاع ، وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياء ، فأنزل الله تعالى قوله :

« الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات . . .) إلخ .

وجاء فى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة ، فجاء عمر بصدقة ، وعثمان بصدقة عظيمة ، وبعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — يعنى عبد الرحمن بن عوف — ثم جاء أبو عقيل بصاع من تمر .

فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر نفسه ، فنزلت الآية الكريمة .

وعن عكرمة قال :

حثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة - يعنى فى غزوة تبوك — فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، فقال : يارسول الله ، مالى ثمانية آلاف ، حبست نصفها ، وأمسكت نصفها .

فقال له الرسول : بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت .

وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يارسول الله ، أصبتُ صاعين من تمر . صاع أقرضه لربى ، وصاع لعيالى .

فلمز المنافقون فقالوا : ما الذى أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا عن صاع أبى عقيل . ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟

* * *

وإذا كان الحق جل جلاله لا يرتضى للمؤمنين أن يتدنسوا بدنس السخرية الجاهلة المتطاولة ، لأنها رديلة من شأن الكافرين والفاسقين ، فإن الله عز شأنه يتيح للمؤمنين فرصة السخرية المتصفة المنتقمة ممن يستحقون الانتقام ، لأن المؤمنين لو استنامو للسخرية تزحف إليهم وتتطاول عليهم من هنا وهناك ، لكان من وراء ذلك شر كبير وبلاء مستطير .

ومن هنا أخبر الله جل جلاله أنه سبحانه يستهزئ بالمجرمين ويجازيهم على

سفاهتهم ، وأن المؤمنين لهم موقف مشهود يسخرون فيه من الفاجرين والكافرين ، ويضحكون منه ، وما أعدل السخرية حين تأتى ردًّا على طغيان ، أو قهراً لكفران .

يقول الله تعالى فى سورة المطففين :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » : (الآيات من ٢٩ — ٣٦) .

إن الأستاذ الإمام يعلق على هذا المشهد بتلك الكلمات .

« من شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ، ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً .

كذلك كان شأن جماعة من قريش — كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأشياعهم — وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان ، متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع ، وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجُهل أمر الدين ، وأرهقت رُوحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن ، وحركات أركان لا تشايعها السرائر ، وتحكمت الشهوات ، فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل ، إلا ما تعلق بالطعام والشراب ، والزينة والرياش ، والمناصب والألقاب ، وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب ، وأحب كل واحد أن يُحمد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل ، واستوى فى ذلك الكبير والصغير ، والأمير والمأمور ، والجاهل والملقب بلقب العالم . . .

إذا صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، واردرى السامعون منهم بالداعى إليه ، وانطبق عليهم نصُّ الآية الكريمة . وإذا مروا بأحد من أهل الحق يغمز بعضهم بعضاً هزؤًا به .

وإذا انقلب هؤلاء الضالون إلى أهلهم ، ورجعوا إلى بيوتهم ، رجعوا إليها فكهين ، ملتذين بحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان ، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل ، كأن يقولوا : عجباً ، هذا فلان يقول لا تدعوا إلا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بالطلب فيما يفوق طاقتكم إلا إلى الله وحده خالق السموات والأرض . فأين الأولياء والشفعاء ؟ . وكم فعلوا وتركوا ، وضروا ونفعوا . . . وهو ينكر جميع ذلك ، كأن الناس جميعاً فى ضلال ، وهو وحده يعرف الحق ! ! . . . ونحو ذلك مما يعدونه فكاهة يتلذذون بحكايته » .

ثم يضيف الأستاذ الإمام :

« ذلك ما كان من معاملة المجرمين للمؤمنين فى الدنيا : يهزؤون بهم ، ويضحكون منهم ، ويجعلونهم أحاديث لهو ولغو .

فانظر ما تكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة . . .

« فاليوم » ... أى يوم الدين والجزاء ... « الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .. لا ضحك الجاهل المغرور ، بل ضحك الموقن المسرور ... ضحك من وصل به يقينُه إلى مشاهدة الحق فسُرَّ به ، وانكشف لهم بالعيان ما كانوا يرجونه من إكرام الله لهم . وخذلانه لأعدائهم ، فسُرُّوا بذلك وفرحوا ، وضحِكوا من أولئك المغرورين الجحدة ، الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم ، وفساد أقوالهم ، فنكِّست أعناقهم لخزيهم وذلهم .

فما أعظم مجد المؤمنين فى ذلك اليوم . . . « على الأرائك ينظرون » إلى

صنع الله بأعدائهم ، وتذليله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاءً وفاقاً » .

قيل إن الله تبارك وتعالى يهيئ الفرص أمام المؤمنين فى الدار الآخرة ، لكى يضحكوا من هؤلاء الكافرين الساخرين ، وقيل إن هناك كُوًى مفتوحة بين الجنة والنار ، يطلع منها أهل الجنة ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا ، اطلع من كوة من هذه الكوى ، فذلك قول الله تعالى : « فاطلع فرآه فى سواء الجحيم » .

وذكر ابن المبارك أنه يقال لأهل النار – وهم فى النار – : اخرجوا . فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها علقت دونهم ، فذلك قوله تعالى : « الله يستهزئ بهم » . ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم ، فذلك قوله سبحانه : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

* * *

والقرآن المجيد الذى حدثنا فيما سبق أن السخرية المتطاولة رذيلة فاحشة ، وأن شر أنواع هذه الرذيلة ما كان موجهاً إلى مقام رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وأن الرذيلة التى تليها هى سخرية الكافرين بالمؤمنين ، يحدثنا بأن عاقبة السخرية – وخيمة ذميمة ، وأن عاقبة المسخور بهم المظلومين فى هذه السخرية عاقبة عظيمة كريمة ، فالعذاب يتوعد الساخرين ، والفوز ينتظر المسخور بهم المؤمنين .

يقول الحق جل جلاله فى سورة « المؤمنون » عن الكافرين وهم فى النار : « قالَ اخْسَئُوا فِيهَا ولا تُكَلِّمونِ ، إنَّه كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يقُولُونَ ربَّنا آمَنَّا فاغفِرْ لَنَا وارْحَمْنا وأنْتَ خيرُ الرَّاحِمِين ، فاتَّخَذْتُمُوهُم سِخْرِيًّا حتَّى أنسَوكُم ذِكْرِى

وَكُنْتُم مِنْهُم تَضْحَكُونَ ، إِنِّى جَزَيْتُهُم اليَوْمَ بما صَبَرُوا أَنَّهُم هُمُ الفائِزُون » . (الآيات ١٠٨ ١١١)

إن الكافرين يحاولون يوم العذاب أن يخرجوا من النار ، ويرجون ذلك ، فيكون الجواب من قبل الحق جل جلاله : « اخسئوا فيها » ... امكثوا فيها صاغرين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فلن تجابوا إليه .

ويذكرهم الله سبحانه بإحدى جرائمهم الشنيعة ، وهى سخريتهم بفريق المؤمنين الطائعين المستغفرين ، حتى حملهم إسرافهم فى السخرية على نسيان الله عز شأنه ونسيان حقوقه الواجبة .

ويؤكد الكتاب العزيز أن السخرية بالإيمان ، والاستهزاء بالدين وأوامره ، مما يفضى إلى الخسار والبوار ، وها هودا يقول فى سورة الزمر :

« أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا عَلَى ما فَرَّطْتُ فى جَنْبِ اللهِ وإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِين . أو تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانى لكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ . أو تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ . بَلَى قَدْ جاءَتْكَ آياتِى فكَذَّبْتَ بِهَا واسْتَكْبَرْتَ وكُنْتَ مِنَ الكافِرِينَ . ويَوْمَ القِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فى جَهَنَّمَ مَثْوًى للمُتَكَبِّرِينَ ، ويُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحْزَنُون » . (الآيات من ٥٦ – ٦١) .

وفى سورة « ص » يقول القرآن عن الكافرين : « وقالُوا مالَنا لا نَرَى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرارِ ، أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ » ؟ (الآيتان ٦١ ، ٦٢) .

وهذا مشهد من مشاهد الآخرة يعرضه علينا ربنا الجليل فى كتابه ، حيث نرى أهل النار يفتقدون من حولهم رجالا كان الكافرون يعدونهم من الأشرار ، وهم المؤمنون الذين يزعم الكفار أنهم أهل الضلال ، ويقول الكافرون حينئذ :

مالنا لا نراهم معنا هنا فى النار؟

ثم يتلمسون فى الرد على أنفسهم الضالة ، فيقولون : أكنا نسخر بهم فى الدنيا أم هم موجودون معنا فى النار ، ولكن أبصارنا لا تراهم ؟

وكذبوا وضلوا وخابوا ... إن هؤلاء المؤمنين ليسوا هنا ، إنهم هناك فى الدرجات العلى ، حيث الثواب العظيم والنعيم المقيم ، وليدرك أهل الضلال الآن إدراك المعاينة أن عاقبة السخرية وخيمة .

* * *

ومن حقنا أن نؤكد أن الله الحكيم العليم الذى حرم السخرية الجاهلة المتطاولة ، قد أباح السخرية المتصفة من أهل البغى والطغيان ، ولذلك قال القرآن على لسان نوح للكافرين من قومه : « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » . أى إن تستجهلونا — أى تحملونا على الجهل على سبيل الهزء — فإنا نستجهلكم كما تستجهلون ، وذلك على حد قول الأول :

ألا لا يجهلن أحد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد سبق قوله عز من قائل : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » :

لقد كان المجرمون يسخرون بالمؤمنين فى الدنيا بغياً وعدواناً ، فلما انطوت صفحتها ، وأقبلت الآخرة الباقية ، انقلب الوضع ، وتغيرت الحال ...

لقد ذل الكفار اليوم وهانوا ، وضاعت كرامتهم تحت أقدام العذاب ، واعتز بالله عباده المؤمنين ، وتهيأت أمامهم الفرصة ليتصفوا وينتقموا ، فهم اليوم من الكفار يضحكون ، وشتان ما بين ضحك وضحك ، وما بين سخرية وسخرية .

* * *

هذا ولقد ذكر الله تعالى النهى عن السخرية صراحةً بلا غموض

ولا إجمال ، حيث قال فى سورة الحجرات :

« يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خيراً مِنْهُمْ ، ولا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أنْ يكُنَّ خيراً مِنْهُنَّ ، ولا تَلْمِزُوا أنْفُسكُمْ ، ولاَ تنَابَزُوا بالألْقابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمان ، ومن لَمْ يَتُبْ فأولئِكَ هُمُ الظَّالِمُون » (الآية ١١) .

وهذا نهى صريح للمؤمنين عن السخرية بغيرهم — رجالا كانوا أم نساء — لأنها حرام ، وربما كان المسخور به أكرم عند الله من الساخر المتطاول ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول :

« الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »

وبطر الحق هو أن يتجبر المرء عند الحق فلا يراه حقًّا ، وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله ؛ وغمط الناس هو الاستهانة بهم والاحتقار لهم .

وكذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

والمجتمع المؤمن مجتمع يترفع عن الدنايا ، ويحرص على تكريم الأخوة الإنسانية الموجودة بين كل فرد وفرد ، وتكريم الأخوة الإيمانية القائمة بين كل مؤمن ومؤمن . فكرامة هذا الفرد - سواء أكان رجلاً أم امرأة — مصونة معززة لا يجوز أن تمس ، وهذا الفرد يمثل كل الأفراد ، فاحترامه احترام لكل الأفراد ، والتطاول عليه يعد تطاولا على كل الأفراد : « إنَّما المؤْمِنُون إخْوَةٌ » (الحجرات الآية ١٠) .

فلا يليق والأمر كذلك أن تصدر سخرية أو تطاول أو استهزاء من فرد على فرد.

ولقد يزن الشخصُ غيره بميزان لا يستقيم وزنُه عند الله ، فلله ميزان إلهى عادل ، أساسه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فليس الغنى والفقر ، ولا الجمال والقبح ، ولا نحو ذلك ، بميزان مرضى لدى الله أعدل العادلين.